

مركزية الإنسان في القرآن الكريم .. معالم الإنسية في النص الديني الإسلامي

الحسن حما⁽¹⁾

خلاصة:

إن فشل «حضارة الإنسان الإله» في استيعاب الإنسان في أبعاده الخلقية التكوينية، والخلقية، وتحقيق الاطمئنان الاجتماعي والنفسي له، جعل الإنسان المعاصر في بحث مستمر عن جواب لمشكلاته وتحديات الحياة. يوازيه بالمقابل ما يشهده الواقع المعاصر من «عودة للدين والقدسي» في الفضاء العام، تأكيداً على نزعة الإنسان الدينية، وتعطشه المستمر للجانب الروحاني.

وتعدّ الأديان السماوية مرشحة أكثر من غيرها في تقديم هذا الجواب، ولا سيما الدين الإسلامي؛ بوصفه أتم الأديان وأكملها، حيث يُقدّم القرآن العظيم الإنسان على أنّه مخلوق مركّب من بعدين اثنين؛ هما: «الروح» و«الجسد»، جامعاً بين العقل والحكمة، وبين الشهوة والطبيعة الحيوانية، ومتجاوزاً الحدود التي رسمها الإنسان لنفسه، بفعل تأثير الحضارة المادية المعاصرة.

وتُشكّل «الروح» التي نفخها الله في آدم ﷺ تحولاً جوهرياً في مسيرة الإنسانية، فهي التي انتقلت بالإنسان إلى مقام التشريف، والتكريم الإلهي، فنفخة الروح كانت الإضافة النوعية التي انتقلت بالإنسان إلى استحقاق السجود الملائكي، وقوتها؛ لأنها من الله تعالى، بما

(1) باحث في الفكر الإسلامي، من المغرب.

يعنيه ذلك من انتمائها إلى المقام العلويّ؛ أي الانتساب إلى عالم الغيب المرتبط بالله سبحانه. هذا ويسعى القرآن الكريم من خلال مشروع إعمار الأرض عبر التسخير إلى بلوغ مقاصد وغايات إصلاح الكون وعمارته؛ تحقيقاً لمهمّة الاستخلاف في الأرض وعبوديّة الإنسان لله سبحانه. وتتحقّق الغاية الاجتماعيّة للتسخير من خلال الالتزام بالقوانين الكونيّة، بحيث يقتنع الإنسان بأنّ مخالفتها خروج عن قوانين الله. ولكي يتحقّق التسخير زوّد الله تعالى الإنسان بأدوات يستطيع من خلالها القيام بوظيفة التسخير؛ وهي: الوحي، والتكليف، والعقل، والسمع، والبصر، والفؤاد.

مصطلحات مفتاحيّة:

الإنسان، حضارة الإنسان الإله، النزعة الإنسيّة، الحضارة الماديّة، الرؤية القرآنيّة للإنسان، الروح، الجسد، النفس، الاستخلاف، التشريف، التكريم، الأمانة، التسخير، إعمار الأرض، الوحي، التكليف، العقل، السمع، البصر، الفؤاد، ...

مقدمة:

جاءت الأديان من أجل «الإنسان»⁽¹⁾، لهدايته وتحريره من الطاغوت التي صنعها الإنسان بنفسه، وترشيده إلى عبودية الله التي تقوده للاستخلاف في الكون. ولذلك احتوت نصوص الأديان السماوية، وحتى الوضعية على معطيات عن خلق الإنسان وتكوينه، وعلاقاته، شكلت أرضية استثمارها الفيلسوف، وعالم الاجتماع، والأنثروبولوجي، والمؤرخ، والأديب، وعالم اللغة... في إطار بحثهم عن تفسير للإنسان (الظاهرة)، والكشف عن ماهيته، ودراسة أبعاده الوجودية والاجتماعية.

وقد أدى تنوع المجالات المعرفية المهتمة بالإنسان إلى تنوع المقاربات والأجوبة المقدمة للبشرية، وخاصة مع التطور والتقدم المعرفي الذي تبلورت معالمه، مع ما شهدته أوروبا إبان القرن التاسع عشر، من تطور منهجي للعلوم والمعارف، راهنت من خلاله الحضارة المعاصرة على الانتقال بالإنسان إلى تحقيق سعادته المادية والرفقي الاجتماعي، وتقديم رؤية للعالم وللإنسان تُعبّر في جوهرها عن نزعته لسيادة العالم، وأحد مؤشراتها بروز تيار «النزعة الإنسانية».. ولكن برغم ما قدّمه الفكر المادي المعاصر؛ من إمكانيات مادية، ورفاه اقتصادي وتلبية حاجات الإنسان المادية؛ ظلّ الإنسان في تطلّع دائم إلى ما يُحقّق سعادته، في إطار من التكامل مع البعد الجوّاني لديه.

إنّ فشل «حضارة الإنسان الإله» في استيعاب الإنسان في أبعاده الخلقية التكوينية، والخلقية، وتحقيق الاطمئنان الاجتماعي والنفسي له، جعل

(1) هناك اختلاف في تحديد ماهية الإنسان بين من اختزله في بعده المادي الصرف، وبين من جمع بين البعد الروحي والمادي، وهناك من ذهب في تعريفه للإنسان إلى البعد الوظيفي له ومدى التزامه بمسؤولية الاستخلاف والانقياد لعبودية الله تعالى، وذلك ما نجده عند الراغب الأصفهاني الذي عدّ «الإنسان على ضربين: عام وخاص، فالعام أن يقال لكلّ منتصب القامة مختصّ بقوة الفكرة، واستفادة العلم، والخاص أن يقال لمن عرف الحقّ فاعتقده، والخير فعمله بحسب وسعته، وهذا معنى يتفاضل فيه الناس، ويتفاوتون فيه تفاوتاً بعيداً، وبحسب تحصيله يستحقّ الإنسانية». الأصفهاني، حسين (الراغب): تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين، ط1، بيروت، دار النفائس، 1408هـ/ق. 1988م، ص61.

الإنسان المعاصر في بحث مستمر عن جواب لمشكلاته وتحديات الحياة. يوازيه بالمقابل ما يشهده الواقع المعاصر من «عودة للدين والقدسي» في الفضاء العام، تأكيداً على نزعة الإنسان الدينية، وتعطشه المستمر للجانب الروحاني، وإعلاناً في الوقت نفسه عن فشل الفكر المادي المعاصر وقصوره عن تلبية تطلعات الإنسان. ما يعني حاجة الإنسان إلى جواب آخر، يُعيد له ما افتقده في الأول، بحيث يمتلك القدرة التفسيرية والمنهجية في استيعاب الإنسان في مختلف جوانبه، ويحفظ للدين أصالته.

وتعد الأديان السماوية مرشحة أكثر من غيرها في تقديم هذا الجواب. وتدرج هذه المقالة ضمن مسار البحث عن جواب ديني لمعضلات الإنسان وإشكالاته التي يُمكن للأديان الكتابية أن تُساهم فيه؛ إذ تستثمر -المقالة- ما يُقدمه القرآن الكريم من معطيات دالة على عنايته بالإنسان وتكريمه وتشريفه، وحضور مفردة «الإنسان» بتعبيراتها المختلفة (الناس، المرء، الرجل، النساء، النفس...)، وبحسب سياق الآيات، ونوعية المخاطب. وتحاول المقالة إبراز جوانب من نظرة القرآن إلى الإنسان، في إطار البحث عن مقاربة شمولية لإنسانية الإنسان في القرآن الكريم، التي تُشكل معادلاً نقدياً لأزمة الإنسان المعاصر؛ كما صاغته المعرفة الغربية في السياق الحديث.

أولاً: فشل معرفة «حضارة الإنسان - الإله» في استيعاب الإنسان:
سعت العلوم الإنسانية منذ القرن التاسع عشر الميلادي إلى تقديم تفسير كلي «للظاهرة الإنسانية»⁽¹⁾، وبناء فكر علمي موضوعي عنها،

(1) يُعد الفيلسوف الدنماركي (سورين كيركجارت) (1813 - 1855 م) الرائد الأول للمنهج الجديد في العلوم الإنسانية، حيث نادى بضرورة دراسة «الإنسان» وفق مصطلحات علوم الروح لا علوم الطبيعة، وقال بضرورة وجود منهج يفيد في دراسة الروح والباطن دراسة كيفية خالصة. وذهب إلى المعنى نفسه المفكر المثالي المحدث (دلتي). وآخر محاولة في وضع منهج للعلوم الإنسانية هي تلك التي قام بها (ريكمان) أستاذ الفلسفة وعلم النفس في جامعة لندن، حيث قدم في عام 1967 م صورة نفسية متكاملة عن منهج العلوم الإنسانية معتمداً على مصطلحات المعنى والفهم والتعبير والسياق. انظر: جبر، محمد: الإنسان والخلافة في الأرض، ط1، رابعة العدوية - مصر، دار الشروق، 1419 هـ/ق/ 1999 م، ص 25.

بحثاً عن جواب لما يختزنه هذا الكائن الفريد، الذي عمر الأرض منذ أن وُجدَ على ظهرها، غير أنّ ما سعت إليه هذه العلوم، هو عينه (المهمة الأساس) للأديان التوحيدية، التي توازي بحثه عن معرفة الله وحقيقة خلقه للإنسان، فمنذ القدم بدأها جس كبير لدى الإنسان في الكشف عن سبب وجوده، ومن ثمّ مصيره، فحاجته الفطرية المتجذّرة في الكينونة الإنسانية، تدفع الإنسان من حيث هو جوهر مفكّر، وكائن أخلاقيّ إلى التساؤل عن ماهيته منذ بدء الكتابة؟ وعن تفهّمه لمصدره، وفهمه لعلاقته مع الطبيعة ودوره فيها. وقد ترك لنا الإنسان في عصور سابقة تدوينات وكتابات، بدأها على ألواح من الطين المطبوع، كما هو الأمر مع «ألواح سومر»⁽¹⁾، أو ما يُعرف الآن بالعراق أو بلاد ما بين النهرين، من المدوّنات التي وُجِدَت في «نينوى»، والمؤلّفة من اثني عشرة لوحة طينية، والمسمّاة بـ «ملحمة جلجامش»⁽²⁾، التي تقدّم لنا تصوّراً عن الخلق وأطواره الوجودية.

إنّ ما قدّمته النصوص الدينية والكتابات القديمة لمعرفة حقيقة الإنسان ومصيره، وجّه جهد الإنسان المعاصر لكشف حقيقة وجوده

(1) استطاع جورج سميث عام (1872م) أن يفكّ قراءتها لنجد فيها كتابات غزيرة عن مفهوم الإنسان للآلهة، وعلاقته بها، وعن تصوّره لكيفية وجوده فيها. للأطلاع على حضارة سومر ومنظورها الديني للإنسان والآلهة والكون، انظر: الماجدي، خزل: متون سومر، الكتاب 1. التاريخ، الميثولوجيا، اللاهوت، الطقوس، ط1، الأردن - عمان، دار الأهلية، 1998م؛ كريم، صمويل: من ألواح سومر، ترجمة: طه باقر، لا ط، بغداد، مكتبة المثنى ببغداد؛ مؤسسة فرانكلين للنشر والطباعة، لا ط.

(2) بعض من هذه القطع دوّن في العهد البابلي القديم: أي في حدود القرن السابع عشر، أو الثامن عشر قبل الميلاد، كما وجدت ترجمات قديمة لأجزاء من هذه الملحمة إلى اللغة الحورية واللغة الحيثية، وهي من اللغات الهندية الأوروبية، وقد دوّنت مثل هذه الترجمات على ألواح من الطين كشف عنها في التنقيبات التي جرت في آسيا الصغرى، ويرجع عهدها إلى النصف الثاني من الألف الثاني قبل الميلاد. وهذا يبيّن بجلاء أنّ ملحمة جلجامش البابلية كانت تُدرّس وتُترجم وتُقلّد في العصور القديمة، في جميع أنحاء الشرق الأدنى القديم، وقد تمّ حتى الآن الكشف عمّا يُقارب نصف مجموع أسطرها البالغة زهاء 3500 سطراً. ونشر في عام 1930م باحث إنجليزي آخر، وهو الأثريّ المختصّ بالدراسات الأدبية الإنسانية «كامبل تومسن» نشرة فاخرة احتوت جميع ما كان معروفاً من النصوص الخاصة بهذه الملحمة. ثمّ ظهرت من بعد ذلك ترجماتان جديدتان متفنتان باللغة الإنجليزية: إحداها: ترجمة «الكسندر هايدل» المعنونة «ملحمة جلجامش وما يضاهاها في التوراة»، والترجمة الأخرى بقلم «افرايم سيابزر» في مجموعة «نصوص الشرق الأدنى القديم». انظر: كريم، من ألواح سومر، م.س، ص 304-305.

الأنطولوجي وغايته، ومادة تكوينه، وساعده في ذلك تعدد المقاربات والمداخل المعرفية، بفعل الثورة التي عرفتھا العلوم الإنسانية إبان القرن التاسع عشر، وظهور تيار يبحث عن الإنسان الذي قضت عليه أغلال الكهنوت وقيود الكنيسة وعصور الظلام في أوروبا، ليعلن عصر الأنوار نهاية التسلط والتبشير بإنسانية الإنسانية من خلال ظهور «النزعة الإنسانية - L'humanisme»⁽¹⁾ أو الأنسنة، التي سعى روادها إلى التقدم بالإنسان، وتحريره من سلطة القيود اللاهوتية والكهنوتية والعقلية الإحيائية، والثورة على الأنساق الدينية الكنسية، والبحث عن سلطة أخرى للإنسان. وبذلك دخلت الإنسانية من خلال أوروبا القرن التاسع عشر في صراع وتوتر حاد، وصل إلى حد «الخصومة بين المذهب المادي وبين الفلسفة المثالية والعقلية الكهنوتية. وقد بلغ التوتر مبلغ الأزمة، عندما أعلن كارل ماركس (Karl Marx) (1818م - 1883م) تفسيره المادي للتاريخ، وبيانه الشيوعي سنة 1848م، فهز صرح الكهنوت بجحده الأديان»⁽²⁾. وقد تعزز هذا بإعلان تشارلس داروين (Charles Robert Darwin) (1809 - 1882م) عن نظريته في كتابه «أصل الأنواع» سنة 1859م، فقدمت نظريته في نشوء الأنواع وتطورها بالانتخاب الطبيعي، تفسيراً بيولوجياً لما كان من اختصاص التأمّلات الفلسفية والغيبات اللاهوتية»⁽⁴⁾، لتبلور فرضية إمكانيّة تفسير الكون والوجود والإنسان

(1) النزعة الإنسانية أو الأنسنة هي حركة فكرية إيديولوجية راجت في إيطاليا في النصف الثاني من القرن الرابع عشر، وامتدت منها إلى بقية بلدان أوروبا الغربية، وكانت من أهم عوامل إرساء العلم والثقافة المحدثين. وهي بالإضافة إلى هذا البعد التاريخي تعني بكل دعوة موضوعها الإنسان، وتؤكد على كرامته، وتجعله مقياس كل قيمة. وهي عند كونت ديانة تزعم أنّ الإنسانية وليس الله هي الأولى بالعبادة. وهي فلسفة عصر النهضة وإسهام مفكره، وهي اشتقاق من (Humanitas) اللاتينية؛ بمعنى تعهد الإنسان لنفسه بالعلوم الليبرالية التي بها يكون جلاء حقيقته بوصفه إنساناً متميزاً عن سائر الحيوانات. انظر: الحنفي، عبد المنعم: الموسوعة الفلسفية، ط1، القاهرة، دار ابن زيدون، لات، ص71.

(2) عبد الرحمن، عائشة: القرآن وقضايا الإنسان، ط4، بيروت، دار العلم للملايين، 1981م، ص209.

(3) داروين، تشارلس: نشأة الإنسان والانتقاء الجنسي، ترجمة: مجدي المليجي، ط1، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، 2005م، ج1، ص63.

(4) عبد الرحمن، القرآن وقضايا الإنسان، م.س، ص209.

بالمادة، وبدأت تتسع الهوة بين رجال الدين ودعاة المذهب الجديد، الأمر الذي جعل إنساني عصر الانبعاث يستندون إلى سلطة خارجية، بينما ظلّ إنسانو عصر الأنوار يبحثون عن هذه السلطة في ذاتهم، ولئن كانت السلطة لدى أولئك سلطة مشخّصة، فقد أمست لدى هؤلاء سلطة مجردة، سلطة العقل الإنساني⁽¹⁾.

إن غاية النزعة الإنسانية الخروج بالإنسان من سلطة الدين إلى سلطة نفسه، وجعله مركز الكون والاعتقاد في إمكانية تحريره قدراته وتأمين حياته، والاطمئنان إلى مصيره، وتطوير طاقته الإبداعية وتميمتها. وباختصار، نظر إلى الإنسان على أساس «تقاليد ثقافية تسندها مقدّمات فلسفية صارمة مبنية على تصوّر للحياة الدنيا محوره الإنسان؛ بوصفه كياناً مادّياً، وحيواناً ناطقاً»⁽²⁾، الأمر الذي تقرّر مع القرن الحادي والعشرين المؤطر بالمعلوماتية وقوّة المال والإعلام، وفق منظورات لا تاريخية تتحدّث عن «موت الإله» عند الفيلسوف الألماني الشهير فريدريك نيتشه (1844-1900م) «Friedrich Nietzsche»، والتأسيس لديانة الإنسان مع الوضعيّة المنطقيّة عند أوغست كونت (1798 - 1857م) «Auguste Comte»⁽³⁾. والحديث عن «نهاية الإنسان والتاريخ»⁽⁴⁾ - لـ فرانسيس فوكوياما «Francis Fukuyama»⁽⁵⁾ (1952م)، و«صدمة المستقبل»⁽⁶⁾، لـ ألفن توفلر «Alvin Toffler»، و«صدام الحضارات» للباحث

(1) العجيلي، محمد علي: النزعة الإنسانية في عصر التوحيدي القرن الرابع الهجري، لا ط، دمشق، إحياء التراث العربي: منشورات وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية، 1428هـ.ق/ 2006م، ص9.
(2) العطاس، محمد نقيب: مُداخلات فلسفية في الإسلام والعلمانية، ترجمة: محمد طاهر الميساوي، ط1، الأردن - عمان، دار النفائس: المعهد العالمي للفكر والحضارة الإسلامية، 1420هـ.ق/ 2000م، ص156.

(3) Auguste Comte, «Catechisme Positiviste», Garnier-flammarion, 1966 Paris.

(4) فوكوياما، فرانسيس: نهاية الإنسان عواقب الثورة البيوتكنولوجية، ترجمة: أحمد مستجير، المراجعة اللغوية: عمر الشناوي، ط1، إصدارات سطور، 2002م، ص18.

(5) فوكوياما، فرانسيس: نهاية التاريخ، ترجمة: حسين الشيخ، ط1، بيروت، دار العلوم العربية، 1413هـ.ق/ 1993م، ص15.

(6) توفلر، ألفن: صدمة المستقبل، ترجمة: عبد اللطيف الخياط، ط1، دمشق، دار الفكر، 1974م، ص5.

الأمريكي صامويل هنتجتون أو «الثقافات والأديان».

وقد أدت هذه المفاهيم والمقولات والاتجاهات الفكرية إلى إفراز وتأسيس نسق فكري وثقافي أوصل أوروبا والغرب -عموماً- إلى إفراز حضارة «الإنسان الإله» في علاقته بالكون والطبيعة، وهو ما استجاب له كل من «فويرباخ» (Ludwig Andreas Feurbach) (1804 - 1872م) في برلين، وأوغست كونت في باريس؛ حينما اقترحا على أوروبا المسيحية أن تعبد إلهاً جديداً هو النوع الإنساني⁽¹⁾، ليأتي جاك دريدا «Jacques Derrida» (1930 - 2004م) ليواصل تفكيكه لظاهرة الإنسان، وتقويضه لفكرة الهدف والمركز والحقيقة والمعنى والمرجع، ويُفكك آخر ما تبقى من المرجعيات، وليصل بمقولات «موت الإله» و«موت الإنسان» و«موت المؤلف»، إلى أقصى حدودها؛ فيعلن، لا عن موت «الإله» و«الإنسان» و«المؤلف» فحسب، وإنما عن عدم إيمانه بأي شيء أصلاً⁽²⁾؛ حيث يقول دريدا: «لا أؤمن بكل بساطة بأي شيء: الكتاب، الإنسان، أو الله»⁽³⁾.

وفق هذا المنظور، قتلت المعرفة التي أفرزتها الحضارة الغربية الإنسان، وأخرجته من كينونته الإنسية. وقد أفرز ذلك آثار اجتماعية واقتصادية وثقافية في تشكيل وعي الإنسان الغربي، بالرغم من المجهود النظري الفلسفي لخطاب النزعة الإنسانية، والتطور المنهجي الحاصل في مجال العلوم الإنسانية والاجتماعية، واتساع السقف المعرفي الذي حملة القرن التاسع عشر الذي تطورت نماذجه التفسيرية في القرن العشرين وبداية القرن الواحد والعشرين، حيث ظل الإنسان في تطلع دائم إلى إجابات مقنعة وكلية لأسئلته الإنسية، فهماً ودراسة، قادرين على

(1) بوعزة، الطيب: «الدين من المنظور الفلسفي الغربي - الفلسفة الوضعية نموذجاً»، مجلة التسامح، تصدر عن وزارة الأوقاف والشؤون الدينية في سلطنة عمان - مسقط، العدد 26، ربيع 1430هـ/ق/ 2009م، ص 73-74.

(2) صديقي، علي: «الأزمة الفكرية العالمية: نحو نموذج معرفي قرآني بديل»، مجلة إسلامية المعرفة، العدد 59، السنة 15، شتاء 1431هـ/ق/ 2010م، ص 39.

(3) دريدا، جاك: مواقع حوارات، ترجمة: فريد الزاهي، ط 1، الدار البيضاء، دار توبقال، 1992م، ص 12.

تجاوز حالة التناقض والتضاد في تركيبه الفيزيولوجي وأبعاده الروحية وأسئلته الوجودية. فنتج عن هذه الغاية انبثاق نقد للأصول الفكرية لمشروع النزعة الإنسانية، من خلال الموقف الفكري المعارض له، والذي يصرّ على ضرورة مراجعة المفهوم الفلسفي عن الإنسان، المنحدر إلينا من العقلانية الكلاسيكية وفلسفة عصر الأنوار، ذلك المفهوم الذي يرشّح الإنسان لأن يكون سيّد الكون بدون منازع وغاية الواقع والطبيعة⁽¹⁾. إن الخلفية الفلسفية النقدية الموجهة لخطاب النزعة الإنسانية، وما يُتيحه النصّ الديني الإسلامي من إمكانيات تفسيرية، تفرض على الباحثين في الفكر الديني الإسلامي، تجاوز خطاب النزعة الإنسية بخلفياتها الفكرية والمنهجية، والبحث عن بديل منهجي ومعرفي له المقومات التفسيرية التي غابت عن الأول، انطلاقاً من ما يُقدّمه القرآن الكريم من معطيات تهّم الإنسان في بنيته التكوينية وعلاقاته.

وإذا تقرّر تعثّر أنموذج الحضارة المادية وفق ما أسسته التجربة الغربية، وتشكّلت معالمه مع تطوّر العلوم الإنسانية والاجتماعية في القرن التاسع عشر؛ فإنّ ذلك لا يقدّم جواباً لمشكلة الإنسان، في إطار البحث عن مقارنة أكثر عمقاً وانسجاماً مع الظاهرة الإنسانية. ومن هنا، يبرز سؤال البحث عن أنموذج معرفي أكثر استيعاباً للإنسان؛ لأنّ اعتبار الفكر الماديّ غير قادر على تقديم فهم وتفسير يعكس صورة الإنسان في علاقته مع الله والكون والطبيعة، وعلاقته بالأطر الدينية، يحتاج في الوقت ذاته إلى البحث عن بديل، تتوافر فيه الإمكانيات التفسيرية التي غابت عن الأول، من خلال الاشتغال على نصوص القرآن الكريم، والاستفادة من بعض المفاهيم في العلوم الإنسانية والاجتماعية (علم الاجتماع الديني، والأنثروبولوجيا الدينية) - عموماً - في دراستها للإنسان، أي أننا نستحضر عناصر اجتماعية وثقافية في الظاهرة الإنسانية أثناء تحليل بنية الإنسان

(1) مجموعة من المؤلفين (هيدجر؛ وآخرون): موت الإنسان في الخطاب الفلسفي المعاصر، ترجمة وتحقيق: عبد الرزاق الداوي، ط1، بيروت، دار الطليعة، 1992م، ص25.

وتفكيكها في نصوص القرآن، بالشكل الذي يُساعدنا على فهم أكثر مقدرةً في تلمس الجوانب التكوينية للإنسان وعلاقاته.

ثانياً: الإنسان ثنائي البعد في القرآن الكريم:

1. مفهوم (النفس) وثنائية الجسد والروح:
يُقدم القرآن العظيم الإنسان على أنه مخلوق مركّب من بعدين اثنين؛ هما: «الروح» و«الجسد»، وقد تعرّض القرآن لهذا في مواطن عديدة من سورة وآياته، مستعملاً مفاهيم دقيقة، منها: مفهوم (النفس) الذي يُعدّ من المفاهيم المفتاحية لدراسة الإنسان في أبعاده الخلقية، إذ يحضر هذا المفهوم في النصّ القرآني؛ عند خطاب الله تعالى للإنسان بالوعيد، وتذكيره بيوم القيامة، أو عند نهيه تعالى عن قتل الإنسان للإنسان وخطورة ذلك على منظومته الاجتماعية، أو في معرض حديثه عن خلق الإنسان بتذكيره له بوحدة المنشأ والتكوين. لهذا يُشكّل مفهوم «النفس» مفهوماً مؤسّساً لتجاوز إشكالية الروح والجسد من خلال قراءته ضمن سياق وروده بمنهج الوحدة البنائية للقرآن العظيم.

وقد جاءت مفردة «النفس» في القرآن العظيم مفردة «في مائة وست عشرة آية، وجمعاً بصيغة نفوس مرتين، وبصيغة أنفس مائة وثلاثاً وخمسين مرة، نتدبّر سياقها جميعاً فنلاحظ أنها تعني الذات بعامّة؛ أي بعنصرها المادي والمعنوي. ومن ثمّ يجوز عليها الموت والقتل»⁽¹⁾. ومن الآيات التي وردت فيها النفس للإشارة إلى الإنسان وأصل نشأته وخلقها من دون تمييز بين بعديه المادي والروحي، قوله - تعالى - : ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْفُؤا رَبِّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَأَنْتُمْ لِلَّهِ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾⁽²⁾.

(1) عبد الرحمن، القرآن وقضايا الإنسان، م.س، ص182.

(2) سورة النساء، الآية 1. وانظر: سورة الأعراف، الآية 189؛ سورة الأنعام، الآية 99؛ سورة الزمر، الآية 7؛

سورة لقمان، الآية 27.

إن الآيات التي اقترنت فيها النفس بالإنسان، تحيل على أنه مُكوّن من «الروح» و«الجسد» (المادّة)، إذ الخطاب في الآيات لم يُفرّق بين الإنسان في أبعاده الخلّقية، وإنّما جعل من (النفس) أصل المنشأ للإنسان ووحدة تكوينه. والمراد بـ (نفس) في آية سورة النساء هو «آدم» عند جميع المفسّرين⁽¹⁾، وآدم ﷺ مكوّن من «الجسد» الذي خلقه الله و«الروح» التي نفخ فيه، وهو ما تُشير إليه الآية: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ، وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَكِينًا﴾⁽²⁾، ولم تُفرّق بينهما؛ فالتسوية أولاً؛ وهي إشارة إلى تكوين (الجسد) في بعده المادّي، ثمّ (نفخت فيه) إشارة إلى «الروح». ونجد إشارة مهمّة عند سيد قطب في تكوين الإنسان المزدوج الذي تشير إليه كلمة (نفس) في سورة النساء؛ حيث يقول: «فهي «نفس» واحدة في طبيعة تكوينها، وإنّ اختلفت وظيفتها بين الذكر والأنثى؛ وإنّما هذا الاختلاف ليسكن الزوج إلى زوجته ويستريح إليها. وهذه هي نظرة الإسلام لحقيقة الإنسان»⁽³⁾.

إنّ مدلول «نفس» في الآيات السابقة جاء ليذكر الإنسان بأصله في التكوين، منذ المنشأ، وليس فقط للإشارة إلى الذكورة والأنوثة، ولذلك اقترنت كلمة (نفس) في آية أخرى بلفظة (أنشأكم). والإنشاء يعني الرجوع إلى أصل الخلقة الأولى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾⁽⁴⁾؛ أي «الإحداث والإيجاد

(1) انظر: ابن عمر، إسماعيل (ابن كثير): تفسير القرآن العظيم، ط5، بيروت، دار الأندلس، 1404هـ.ق/ 1984م، ج2، ص196؛ الطبري، محمد بن جرير: جامع البيان في تأويل القرآن، تقديم: خليل الميس، ضبط وتوثيق وتخريج: صدقي جميل العطار، لا.ط، بيروت، دار الفكر، 1415هـ.ق/ 1995م، ج4، ص296-297؛ الرازي، فخر الدين: مفاتيح الغيب، ط3، بيروت، دار إحياء التراث العربي، 1420هـ.ق، ج9، ص157-160؛ القرطبي، محمد: الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني، إبراهيم أطفيش، ط2، القاهرة، دار الكتب المصرية، 1384هـ.ق/ 1964م، ج7، ص46؛ الطاهر بن عاشور، محمد: التحرير والتنوير، لا.ط، تونس، الدار التونسية للنشر، 1984م، ج7، ص395.

(2) سورة الحجر، الآية 29.

(3) الشاذلي، إبراهيم (سيد قطب): في ظلال القرآن، ط10، بيروت، دار الشروق، 1402هـ.ق/ 1982م، ج3، ص1411.

(4) سورة الأنعام، الآية 98.

وَالضَّمِيرُ الْمُنْصُوبُ مُرَادٌ بِهِ الْبَشَرُ كُلُّهُمْ⁽¹⁾. واقتران النفس في القرآن بالعذاب والجزاء والحساب يوم القيامة⁽²⁾ يكون على المادّة والروح معاً، لهذا جاء خطاب الله للإنسان بالخوف من هذا اليوم عن طريق كلمة (نفس) التي جمعت الإنسان في بعديه الروحي والمادي، إذ لو قصد القرآن الإنسان في بعد واحد لأشار إليه؛ كما هو الأمر عندما أضاف سبحانه العلم بماهيّة الروح إليه، فقال: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾⁽³⁾، فأشار إلى «الروح» وحدها، في حين استعمل -هنا- كلمة «نفس» لتدلّ على الإنسان كليّة، وليس في النصّ ما يصرفها على أنّ المراد منها «الروح» دون «الجسد»، أو العكس. لهذا اقترنت «النفس» بالحساب في قوله تعالى: ﴿وَأَتَقُوا يَوْمًا لَا تَجْرِي فِيهِ نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾⁽⁴⁾، وجاءت في سياقات أخرى للإشارة إلى علاقة عمل الإنسان بالجزاء: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْتُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾⁽⁵⁾.

هكذا يُقدّم القرآن الإنسان من خلال مفردة «النفس» مستوعباً الإنسان في بعديه المادي والروحي، ومتجاوزاً الحدود التي رسمها الإنسان لنفسه، بفعل تأثير الحضارة الماديّة المعاصرة التي تختزل الإنسان في جانب واحد، فقصرت الإنسان على جسده المادي فقط؛ بما أدّى إلى انحطاطه إلى ما دون الحيوان، وإنّ عدّوه زوراً أرقى الحيوانات؛ ذهناً وبناءً جسدياً⁽⁶⁾.

لهذا، «فالفلسفة الماديّة؛ كالأخرى الروحانيّة، عاجزتان عن فهم

(1) الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، م، س، ج 7، ص 395.

(2) سورة البقرة، الآية 280.

(3) سورة الإسراء، الآية 85.

(4) سورة البقرة، الآية 48؛ وانظر: الآية 122.

(5) سورة آل عمران، الآية 25.

(6) النجار، زغلول: الإنسان من الميلاد إلى البعث في القرآن الكريم، ط 1، بيروت، دار المعرفة، 1428 هـ/ق/

2008 م، ص 27.

الإنسان، وعن تمكينه من الخروج من الأزمات التي تزجّاه فيها، ولا يمكنهما التحقق في مستوى التنزيل؛ إلا بالقضاء على خصوصية الإنسان المتمثلة في ثنائية بعده⁽¹⁾.

وأما القرآن الكريم فغاياته أن يُنبّه الإنسان إلى وحدة المنشأ التي تجمع بين الأمرين؛ الجسد والروح، وهذه الوحدة هي التي شكّلت الإنسان الذي كُلف بحمل الأمانة: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾⁽²⁾، بعدما زوّده بملكة العقل التي هي مناط التكليف، ومن ثمّ هناك جزاء وحساب بعد الدنيا. فلا يتصور -إذن- أن يكون مقتضى حمل الأمانة من قبل الإنسان بناءً على الجسد وحده، «ما لم تُلاحظ الطبيعة الإنسانية في جوهرها، باعتبار أنّ الإنسان مخلوق مركّب من طين وروح، عقل وشهوة، خلافاً لطبيعة الملائكة التي هي عقل محض، وخلافاً لطبيعة الحيوان الذي هو مادة محض وشهوة محض، ولا شكّ في أنّ اختلاف الطبائع، يُوجب اختلاف الآثار والمفاعيل والأدوار والوظائف»⁽³⁾. وهذا المعنى سوف يتضح باستخدام القرآن لـ«النفس» عند النهي عن قتل الإنسان لأخيه الإنسان ظلماً، وبيان خطورة ذلك على المجتمع: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا ﴾⁽⁴⁾، وعند نهيه عن قتل الأولاد خشية الإملاق (الفقر)⁽⁵⁾، وقد حرّم قتل النفس في الشرائع السابقة وعدّ قتلها قتل للإنسانية جمعاء⁽⁶⁾؛ ولذلك شرّع في الشريعة اليهودية أن قتل الإنسان

(1) عبادي، أحمد: الوحي والإنسان نحو استئناف التعامل المنهجي مع الوحي، ط1، القاهرة، دار النيل 1434هـ/ق. 2013م، ص90.

(2) سورة الأحزاب، الآية 72.

(3) موسى، فرح: الإنسان والحضارة في القرآن الكريم بين العالمية والعولمة، ط1، بيروت، دار الهادي، 1424هـ/ق. 2003م، ص30.

(4) سورة الإسراء، الآية 33.

(5) انظر: سورة الأنعام، الآية 152.

(6) انظر: سورة المائدة، الآية 34.

بغير حق يستوجب قتل الإنسان، وذكر ذلك بالنفس في مقابل النفس⁽¹⁾. إنَّ تحريم القرآن قتل الإنسان للإنسان لم يكن بعبارة «إنسان» أو «جسد» من دون «الروح»، لكنّه تمّ بالإشارة إلى «النفس»، وقتل الإنسان لا يتصور بالقضاء على الجسد وبقاء الروح أو العكس؛ لأنَّ اسم «الإنسان» اسم يقع على النفس دون الجسد، ويقع أيضاً على الجسد دون النفس، ويقع أيضاً على كليهما معاً مجتمعين، فنقول في الحيّ: هذا إنسان، وهو مشتمل على جسد وروح، ونقول للميت: هذا إنسان وهو جسد لا نفس فيه، ونقول: إنَّ الإنسان يُعَذَّب قبل يوم القيامة، ويُنَعَّم يعني النفس دون الجسد⁽²⁾. فاستخدام القرآن لمفردة «نفس» يعكس مقاربة القرآن لثنائية الجسد والروح في الإنسان، من خلال ورود المفردة في سياقات أخرى تُقيد حالات الإنسان النفسيّة والخارجيّة، إذ توصف النفس «بالطمأنينة والرضى»⁽³⁾، ومنها يكون التضرُّع والخيفة⁽⁴⁾، والاستيقان⁽⁵⁾، والإيثار⁽⁶⁾، والخداع⁽⁷⁾، والحسد⁽⁸⁾، والمقت⁽⁹⁾، والوسوسة⁽¹⁰⁾، ويتعلّق بها الإيمان والكفر، والهدى والضلال⁽¹¹⁾، والخيانة والفجور والتقوى⁽¹²⁾، وهي التي تتحمّل كذلك التكليف: ﴿لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾⁽¹³⁾، وتتلقّى الجزاء ثواباً أو عقاباً⁽¹⁴⁾.

- (1) انظر: سورة المائدة، الآية 47.
- (2) انظر: ابن حزم، علي: الفصل في الملل والأهواء والنحل، القاهرة، مكتبة الخانجي، ج 5، ص 42.
- (3) انظر: سورة الفجر، الآية 30.
- (4) انظر: سورة الأعراف، الآية 205.
- (5) انظر: سورة النمل، الآية 46.
- (6) انظر: سورة الحشر، الآية 9.
- (7) انظر: سورة البقرة، الآية 8.
- (8) انظر: سورة البقرة، الآية 108.
- (9) انظر: سورة غافر، الآية 9.
- (10) انظر: سورة الناس، الآيات 4-6.
- (11) انظر: سورة الإسراء، الآية 15؛ سورة الأنعام، الآية 105؛ سورة يونس، الآية 108؛ سورة الزمر، الآية 41؛ سورة سبأ، الآية 50.
- (12) انظر: سورة الشمس، الآيتان 7-8؛ سورة النساء، الآيات 109-111.
- (13) سورة الأنعام، الآية 152؛ وانظر: سورة الطلاق، الآية 7.
- (14) انظر: عبد الرحمن، القرآن وقضايا الإنسان، م.س، ص 184-185.

ومختلف هذه الأوضاع التي تعتري الحالة النفسية والفيزيولوجية للإنسان، نابعة عن تفاعل بين «الروح والجسد»، فالروح هي التي تدفع الإنسان ليكشف عن جوهر ما يتدافع بداخله؛ بينما يُعبر الجسد عن صور هذا التفاعل الداخلي، فإذا كانت حالته يعترىها الرضا والسرور أو الخيانة والفجور. فذلك ينكشف من خلال المظهر الخارجي، وهذه جوهر حقيقة «تكوين الإنسان التي فُطرَ عليها، قائمة على المادية والروحية، فهو جسد وروح متلازمان معاً، فله نزعات بشرية شهوانية أو نزعة شرّ، وله -أيضاً- ميول طيبة أو نزعة خير، وتغلب إحدى النزعتين على الأخرى بالتميّز والعقل وجهاد النفس، وكان تشريع القرآن لصالح الإنسان في الدنيا والآخرة منطلقاً من وجود هذه الازدواجية والنظرة الواقعية المعتدلة التي لا إفراط فيها ولا تقريط، وتعتمد على إيجاد توازن بين المطلبين، وتوسّط في تحقيق وسطية الإسلام في كلّ شيء»⁽¹⁾. إنّ نظرة القرآن للروح والجسد على أنّهما طرفاً تشكّل الإنسان، كشفت عن خصال هذا الإنسان الذي جمع بين العقل والحكمة وبين الشهوة والطبيعة الحيوانية، لهذا «يصير الإنسان تارة غارقاً في ظلمات الأجسام، وتارة يتخلّص منها إلى أنوار عالم القدس وسبحات سرادقات الجلال، وينتقل تارة من الشدّة إلى الرخاء، وأخرى من اليأس إلى الرجاء، فإذا انتقلوا من الظلمة إلى النور ومن الحجاب إلى الوصول عظم التذاذهم (تلذّذهم) بذلك، ويحصل لهم من اللذات والسعادات ما لا عين رأت ولا أذن سمعت»⁽²⁾. فالإنسان -إذن- في القرآن المجيد «جسد وروح لا انفصام بينهما، والعقل حكم بينهما، على الرغم من أنّ لكلّ منهما مطالبه وغاياته، ودوافعه واحتياجاته، ويُعبر عن الجسد ونوازعه أحياناً

(1) الزحيلي، وهبة: «الإنسان في القرآن الكريم»، مجلة الحضارة الإسلامية، تصدر عن المعهد الوطني للتعليم العالي للحضارة الإسلامية في وهران -الجزائر، العدد 4، شعبان 1419هـ.ق/نوفمبر 1998م، ص65.

(2) الرازي، فخر الدين: النفس والروح وشرح قواهما، تحقيق: محمد المعصومي، لا ط، طهران، دار لیتفقوها 1392هـ.ق، ص9.

بالنفس، ولذلك يُعبّر عن الذات الإنسانية بالروح والنفس والعقل. والنفس بغرائزها تُمثّل القوّة الحيّة في الذات الإنسانية، والعقل هو مركز الحواس والتفكير والذاكرة والإرادة، وكذلك القلب، وإن غمض على الإنسان فَهَمّ الرابط بينهما. أمّا الروح فهي غيب من علم الله -تعالى-، ويتوسّط العقل بين الروح والنفس (أو الجسد الحيّ الذي تنعكس عليه إشارات الروح وأعمال الجوارح)، فالعقل هو وازع الغرائز والمتحكّم فيها، ومستلهم الهداية من الروح، وعلى ذلك، فالإنسان يعلو على نفسه بعقله، ويعلو على عقله بروحه⁽¹⁾.

2. الروح والإضافة النوعيّة للإنسان:

تُشكّل «الروح» التي نفخها الله في آدم ﷺ تحولاً جوهرياً في مسيرة الإنسانية، فهي التي انتقلت بالإنسان إلى مقام التشريف، والتكريم الإلهيّ، وبفضلها سجدت الملائكة لآدم ﷺ⁽²⁾. وتُبيّن الآيات القرآنيّة حقيقة أساس في موضوع «الروح» وعلاقتها بالإنسان الذي خلقه الله واستخلفه في الأرض، إذ من خلالها تتأكّد مكانة الروح في (معادلة الإنسان والجسد والروح في القرآن العظيم)، وهو ما تكرّر في سورة الحجر، وسورة ص⁽³⁾، وذُكرَ في سورة السجدة⁽⁴⁾، فنفخة الروح كانت الإضافة النوعيّة التي انتقلت بالإنسان إلى استحقاق السجود للملائكيّ، وقوّتها؛ لأنّها من الله تعالى، بما يعنيه ذلك من انتمائها إلى المقام العلويّ؛ أي الانتساب إلى عالم الغيب المرتبط بالله سبحانه، لهذا جاء في آية أخرى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾⁽⁵⁾.

إنّ النظر في مسألة «الروح» وقراءتها ضمن رؤية القرآن لخلق

(1) النجار، الإنسان من الميلاد إلى البعث في القرآن الكريم: م، س، ص 27.

(2) انظر: سورة الحجر، الآيات 26-31؛ سورة ص، الآيات 70-73؛ سورة السجدة، الآيات 4-8.

(3) انظر: سورة ص، الآية 71؛ سورة الحجر، الآية 29.

(4) انظر: سورة السجدة، الآية 8.

(5) سورة الإسراء، الآية 85.

الإنسان، وغايته في الكون؛ تكشف عن طبيعتها ومركزيتها في الإنسان، إذ من خلالها تتأسس معيارية التقوى والفجور في كينونة الإنسان. فأدم عليه السلام أضافت إليه بُعد التقوى والارتباط بالله بعد الخلق، في حين غابت عن (إبليس) فخرج عن رحمة الله؛ لأنها من عالم الأمر، لا من عالم الخلق: ﴿وَسْأَلُونَاكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾؛ وذلك يدل على أنّ جوهر الروح من عالم الأمر⁽¹⁾. وكونها جاءت بعد التسوية الإلهية للإنسان، ولم تقتنر بالجسد، يحتوي على إشارة أساس في تكوين الإنسان؛ (فسويته) تُفيد الجانب الجسمي المادي في الإنسان، في حين أنّ (نفخت فيه من روحي) للإشارة إلى الروح في بعدها العلوي، يقول الفخر الرازي (543 - 606هـ): «ميّز بين التسوية وبين نفخ الروح، فالتسوية عبارة عن تخليق الأبعاد والأعضاء وتعديل المزاج والأمشاج، فلما ميّز نفخ الروح عن التسوية، ثمّ أضاف الروح إلى نفسه دلّ ذلك على أنّ الروح جوهر شريف، ليس من جنس الجسد»⁽²⁾. وهذه الحقيقة في التلاوة القرآنية تقرّرت منذ أنّ خلق الله الإنسان، وأنشأه على بعدين في تكوينه، نظراً لقيمة الإنسان ومرتبته في الكون، إذ بفضل هذه «الروح» انتقل التكوين العضويّ الوضع في الإنسان إلى ذلك الأفق الإنسانيّ الكريم، منذ بدء التكوين، وجعله ذلك الخلق المتفرد الذي تُوكّل إليه الخلافة في الأرض بحكم تفرد خصائصه منذ بدء التكوين، (...) فالنفخة العلوية التي فرّقت بينه وبين سائر الأحياء؛ ومنحته خصائص الإنسانية، التي أفردته منذ نشأته عن كلّ الكائنات الحيّة؛ فسلك طريقاً غير طريقها منذ الابتداء؛ بينما بقيت هي في مستواها الحيواني لا تتعداه. هذه النفخة التي تصله بالملاء الأعلى؛ وتجعله أهلاً للاتّصال بالله، وللتلقّي عنه؛ ولتجاوز النطاق الماديّ الذي تتعامل فيه العضلات والحواس، إلى النطاق التجريديّ الذي تتعامل فيه القلوب والعقول. والتي

(1) الرازي، النفس والروح وشرح قواهما، م.س، ص36.

(2) م.ن.

تمنحه ذلك السرّ الخفيّ الذي يسرّب به وراء الزمان والمكان، ووراء طاقة العضلات والحواس»⁽¹⁾.

وهذا التكوين المزدوج للإنسان هو الذي هيّأه لحمل أمانة الاستخلاف وعمارة الأرض، إذ تكوينه يتناسب مع المهمة التي من أجلها خلقه الله تعالى، لذلك «اقتضت الحكمة أن يجمع له القوتين؛ فإنه لو خلقه كالبهيمة معرّى عن العقل؛ لما صلح لعبادة الله تعالى وخلافته؛ كما لم يصلح لذلك البهائم، ولا لمجاورته ودخول جنّته. ولو خلّق كالملائكة معرّى عن الحاجة البدنية؛ لم يصلح لعمارة أرضه، كما لم يصلح لذلك الملائكة، حيث قال تعالى في جوابهم: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾⁽²⁾، فاقتضت الحكمة الإلهية أن تُجمع له القوتان، وفي اعتبار هذه الجملة تنبيه على أنّ الإنسان دنيويّ وأخرويّ، وأنّه لم يُخلَق عبثاً»⁽³⁾. وقد نبّه الله عليه بقوله - تعالى - : ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾^(١١٥) فتعلّى الله المليك الحقّ لا إله إلا هو ربّ العرش الكريم⁽⁴⁾.

وخلاصة ما سبق: أنّ القرآن الكريم يُقدّم تصوّراً ناظماً في معالجة جوانب الإنسان وتشكلاته التكوينية، فقد استوعب بعده الماديّ (الجسد) وجانبه الروحيّ، ليُقدّم بذلك رؤية تتجاوز ما تؤسّسه الحضارة المادية المعاصرة التي اختزلت الإنسان في بعده الماديّ، وأغفلت جوهرأ أساساً في تكوينه البيولوجيّ، ورؤية القرآن قائمة على النظر إلى الإنسان على أنّه مخلوق مركّب؛ يشمل على الجانب الطيني (حمأ مسنون) وهذا يُذكر الإنسان بشكل دائم بأنّه مخلوق من أحقر شيء في الكون (التراب):

(1) سيد قطب، في ظلال القرآن، م.س، ج4، ص2138-2139.

(2) سورة البقرة، الآية 30.

(3) الأصفهاني، تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين، م.س، ص64.

(4) سورة المؤمنون، الآيتان 115 - 116.

﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾⁽¹⁾، ومن ثم يكون ارتباطه بالدنيا ارتباطاً استخلافياً؛ ويتخذها بكل مقوماتها المادية لتحقيق عمارة الأرض وفق مقتضى العبودية لله. ويكون ارتباطه بالروح ارتباطاً مسؤوليّة، ومقام علو، لكي يتسامى عن كل ما يتناقض مع مقومات الروح التي هي من أمر الله تعالى، وبعبارة أخرى، «فمعنى: ﴿وَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ تصبح تدلّ على أنّ النفخة الإلهية في آدم هي في المقام الأول نفخة ثقافية بالمعنى المعاصر الذي تعطيه العلوم الاجتماعية لمصطلح الثقافة. فعلوم الأنثروبولوجيا والاجتماع والنفس تجمع على أنّ الإنسان يتميز ويتفوق على غيره من الكائنات الأخرى بما تُسميه تلك العلوم بالثقافة، أو ما يُسميه الباحث التونسي محمود الذواودي، بـ «الرموز الثقافية» (اللغة، والفكر، والمعرفة/ العلم، والدين، والقيم، والأعراف الثقافية...)؛ أي أنّ الجنس البشري يتفرد بتلك المنظومة من الرموز الثقافية؛ وهي التي أهّلته وحده في الماضي وتؤهله اليوم وفي المستقبل إلى لعب دور خليفة الله في الأرض»⁽²⁾.

وفق هذا المنظور يستطيع الإنسان تحقيق الإنسيّة التي تتماشى مع طبيعته وتركيبه في الخلق والوجود، لهذا تعدّ الرؤية القرآنية مدخلاً أساساً في تجاوز إشكالية الروح والمادة وإشكالاتها في الواقع المعاصر، والتأسيس لمنظور ينتقل بالإنسان من العدميّة والمادة البهيمية إلى حالة الإنسان الذي خلقه الله تعالى في أحسن تقويم: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾⁽³⁾، وتجاوز المنظور المتصلّب للجسد بشكل مركزي الذي تنطلق منه الرؤية المسيحية في مقاربتها للإنسان في علاقته بالجسد والروح.

(1) سورة طه، الآية 55.

(2) الذواودي، محمود: الثقافة بين تأصيل الرؤية الإسلامية واغتراب منظور العلوم الاجتماعية، ط1، بيروت، دار الكتاب الجديد، 2005م، ص 80-81.

(3) سورة التين، الآية 4.

ثالثاً: نظام العلاقات الإنسانية في القرآن الكريم:

١. علاقة الإنسان الكونية = علاقة استخلاف وعمارَة وتسخير:

كثيرة هي السياقات التي يتحدث فيها القرآن الكريم عن «تسخير» الكون للإنسان، فقد تحدث القرآن عن تسخير مكوّنات الكون كلّها للإنسان (الليل، والنهار، والشمس، والقمر، والنجوم، والبحر، والسحاب، والجبال، والدوابّ ...) (١).

والتَّسْخِيرُ في اللغة معناه: «التَّذْلِيلُ، وَسُفْنٌ سَوَاحِرُ مَوَاحِرُ، مِنْ ذَلِكَ. وَكُلُّ مَا ذَلَّ وَانْقَادَ أَوْ تَهَيَّأَ لَكَ عَلَى مَا تُرِيدُ فَقَدْ سُخِّرَ لَكَ. وَسَخَّرَهُ تَسْخِيرًا: ذَلَّلَهُ وَكَلَّفَهُ مَا لَا يُرِيدُ وَقَهَرَهُ، وَمِنْهُ ذَلِكَهُمَا: ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢) قَالَ الْأَزْهَرِيُّ: جَارِيَاتٌ مَجَارِيَهُنَّ (٣). والتسخير كذلك؛ الانتفاع، قال الزجاج: «تسخير ما في السماوات؛ تسخير الشمس والقمر والنجوم للآدميين، وهو الانتفاع بها في بلوغ منابِتِهِم والافتدَاءُ بها في مسالكهم، وتسخير ما في الأرض تسخير بحارها وأنهارها ودوابّها وجميع منافعها» (٤)، ومعناه اصطلاحاً: «أنَّ الله مَكَّنَ الإنسان من استخدام مظاهر الكون في تطبيقات عمليّة نافعة للإنسان في مجالات حياته المختلفة دون ثمن يُقدِّمه لله» (٥)، و«تسخير الكون من النعم التي عمّت المكلفين

(١) سورة الرعد، الآية ٢؛ سورة النحل، الآية ١٢؛ سورة الحج، الآية ٦٣؛ سورة البقرة، الآية ١٦٤؛ سورة الرعد، الآية ٢؛ سورة إبراهيم، الآيتان ٣٢-٣٣؛ سورة النحل، الآيتان ١٢، ١٤؛ سورة الحج، الآية ٦١؛ سورة لقمان، الآيتان ٢٠، ٢٩؛ سورة فاطر، الآية ١٣؛ سورة الزمر، الآية ٥؛ سورة الزخرف، الآية ١٣؛ سورة الجاثية، الآيتان ١٢-١٣.

(٢) سورة الْأَعْرَاف، الآية ٥٤.

(٣) الزبيدي، محمد: تاج العروس من جواهر القاموس، ط٢، بيروت، دار الفكر، ١٤٢٤هـ.ق، ج ١١، مادّة (سخر)، ص ٥٢١-٥٢٣.

(٤) ابن مكرم، محمد (ابن منظور): لسان العرب، لا.ط، بيروت، دار صادر، لا.ت، ج ٤، مادّة (سخر)، ص ٣٥٣.

(٥) الكيلاني، ماجد: فلسفة التربية الإسلامية، سلسلة نظرية التربية الإسلامية (١)، ط١، الأردن-عمان، دار الفتح للدراسات والنشر، ١٤٣٠هـ.ق/ ٢٠٠٩م، ص ١٤٥.

بأسرهم (...) والانتفاع بالأرض والسماء؛ إنما يكون بعد حصول الحياة، فلهذا ذكر الله أمر الحياة أولاً، ثم أتبعه بذكر السماء والأرض⁽¹⁾. وهو ما تؤكد سورة النحل⁽²⁾، وهذه الأشياء كلها مسخرة للإنسان قطعاً لعذره وحجة عليه، ليكون له عبداً؛ كما خلقه عبداً⁽³⁾.

ومن مقتضيات التسخير «استعمار» الإنسان في الأرض والكون الوارد في سورة هود: ﴿وَالْإِنَّمُودُ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَقَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾⁽⁴⁾، قال الشيخ الطاهر بن عاشور: «الاستعمار؛ الإعمار؛ أي جعلكم عامرينها (عامريها)، فالسجين والتاء للمبالغة. ومعنى الإعمار أنهم جعلوا الأرض عامرة بالبناء والغرس والزرع؛ لأن ذلك يعدّ تعميراً للأرض حتى سمي الحرث عمارة؛ لأن المقصود منه عمر الأرض⁽⁵⁾. فالإعمار يشير إلى الحفاظ على مكونات الكون من دون الدخول في صراع معها؛ أي مراعاة نظام الكون. والإعمار فيه إشارة إلى أن الكون مسخر للإنسان، بحيث لا يمكن أن يقوم الإنسان بعمارة الكون؛ ولكن كان هذا الكون مُعدّ لهذه الغاية من قبل الله سبحانه وتعالى، وهذا فارق جوهري بين الرؤية الإسلامية والرؤية الغربية للكون من خلال مفردة التسلط على الأرض عبر إخضاعها بشتى الوسائل حتى لو أدى ذلك إلى اضطراب النظام الكوني (منها: الحروب، وأسلحة الدمار الشامل التي أنتجها الغرب، والغزو الاستعماري الإمبريالي للشعوب...)، بخلاف المنطق القرآني القاضي بإعمار الأرض وفق مقاصد تحافظ على الأرض والسماء والدواب والبحار والإنسان.

وتبرز علاقة الإنسان بالكون -كذلك- من خلال لفظي (السموات

(1) الرازي، مفاتيح الغيب، م.س، ج2، ص 153.

(2) انظر: سورة النحل، الآية 12.

(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، م.س، ج1، ص 253.

(4) سورة هود، الآية 61.

(5) الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، م.س، ج12، ص 108.

والأرض) التي تبدو علاقة تقابل (ندية). وتؤكد ذلك النصوص القرآنية «التي ورد فيها المفهومان مقترنان ببعضهما، وخصوصاً ما جاء في سورة الأحزاب، حيث تصوّر التقابل بينهما في قضية التكليف الذي عبّر عنه لفظ «الأمانة»، حيث عُرضت الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان»⁽¹⁾.

من خلال ما سبق تتضح ثلاثة مفاهيم مركزية وأساس في دراسة الإنسان وعلاقته بالكون؛ أولها «خليفة»، والثاني «استعمركم» والثالث «سخر»، وكلها مفاهيم تنتمي إلى الحقل الدلالي نفسه، الذي يُشير إلى عمارة الإنسان للأرض.

2. مقاصد التسخير والإعمار وغاياتهما:

يسعى القرآن الكريم من خلال مشروع الإعمار عبر التسخير إلى بلوغ مقاصد وغايات إصلاح الكون وعمارته تحقيقاً لمهمة الاستخلاف في الأرض وعبودية الإنسان لله سبحانه، لهذا يُرتّب تصوّر القرآني علاقة الإنسان بالكون انطلاقاً من وظيفة كلّ واحد منهما؛ فالكون خلقه الله لكي يُقدّم للإنسان كلّ المقومات التي تُساعده للقيام بعبادة الله سبحانه عبر وظيفة الاستخلاف وعمارة الأرض، ونجد في القرآن آيات تُشير إلى أنّ التسخير مرهون بتحقيق العبودية لله تعالى، من خلال وظيفة الاستخلاف في الأرض؛ من ذلك قوله - تعالى - : ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾⁽²⁾. ويوجد مع هذا المقصد العام مقاصد تبعية فرعية؛

منها: غاية اجتماعية عقدية: وتتشكل هذه الغاية من خلال فهم قوانين النفس والاجتماع الإنساني: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُظْلَمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ

(1) بوشلطة، أحمد: مفهوم الإنسان في القرآن الكريم والحديث الشريف، ط1، بيروت، منشورات الحلبي الحقوقية؛ مكتبة حسن العصرية، 2009م، ص 153 - 154

(2) سورة هود، الآية 60.

يَظْلِمُونَ»^(١). وتتحقق الغاية الاجتماعية للتسخير من خلال الالتزام بالقوانين الكويتية، بحيث يقتنع الإنسان بأن مخالفتها خروج عن قوانين الله، ومنطلقه في ذلك الالتزام بقوانين الأنفس والمجتمعات التي شرعها الله لعباده؛ «لأنّ الذين لا يراعون قواعد الإيمان بالله واليوم الآخر، فسوف يتحطمون ويتكسّرون؛ كما يتكسّر الذين يتفزون من الطائرات والأسطح دون مراعاة قوانين الجاذبية، وأنّ المجتمع الذي لا يراعي الناس فيه مسؤولياتهم التي أمر الله بها في سلوكهم وعلاقاتهم، فسوف يتحطم بسبب خروجه على قوانين الأخلاق أو قوانين الله في الأنفس والاجتماع الإنساني؛ كما يتحطم الذي خرج على قوانين الطبيعة في الجاذبية والاحتراق»^(٢)، و«الذي يحول دون الإنسان وتسخير الكون هو التعضية والتفرقة بين مظاهره، وعدم الاستبصار بينائيتها. فمن خلال الأساق يتمكن الإنسان من إدراك استمرارية النظام الكوني القائم على قوانين وسنن تؤدّي وظيفتها فيه، وتسري سريانا لا يختلف ولا يقصر عن مظهر من مظاهره، ما علم منها الإنسان وما لم يعلم، وبالطرائق التي أحاطت بها معرفته أو تلك التي لم تبلغها بعد»^(٣).

ولهذا أرسل الله نبيه شعبياً ﷺ لإصلاح الفساد الاقتصادي الذي يعطل تسخير الكون، وفي قضية نبيه لوط ﷺ نبه القرآن إلى قضية أساس؛ وهي فساد اجتماعي: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ بُصُورُكُمْ ۚ أَيْنَكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ ۚ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ بِجَهْلُسٍ ۚ﴾^(٤) ﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ أَلْ لُوطُ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْاسٌ يَبْطِهُرُونَ ۚ﴾^(٥)، وكذلك نبيه موسى ﷺ جاء لإصلاح سياسي واقتصادي...

(1) سورة الروم، الآية 9.

(2) الكيلاني، فلسفة التربية الإسلامية، م.س، ص 149.

(3) عبادي، الوحي والإنسان نحو استئناف التعامل المنهجي مع الوحي، م.س، ص 36-37.

(4) سورة النمل، الآيات 54-56.

3. أدوات الخلافة والاستعمار:

ولكي يتحقق التسخير زوّد الله تعالى الإنسان بأدوات يستطيع من خلالها القيام بوظيفة التسخير؛ وهي: الوحي، والتكليف، والعقل، والسمع، والبصر، والفؤاد.

أ. العقل والفؤاد والسمع والبصر:

أودع الله في الإنسان خصائص ومميزات هي بمثابة أدوات تُساعده على تحقيق الاستخلاف والإعمار، وأولى هذه الأدوات؛ هي: السمع والبصر والعقل: ﴿وَلَا تَقُفْ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾⁽¹⁾. وهذه الأدوات تنفع إذا كانت عقيدة التوحيد هي الموجه للإنسان، بوصفها «الأداة» المعيارية التي تمكنه من التوظيف الأمثل لمؤهلاته وحسن استخدام أدوات التسخير؛ وفق منهجية تتسجم مع الشرط الذي وضعه الله؛ لكي يستجيب الكون للإنسان.

ب. النظر والسير في الأرض:

ومن أدوات التسخير - كذلك - النظر في الكون وعناصره التي أودعها الله فيها، ويشير إليها القرآن الكريم في مواضيع كثيرة باسم «السموات والأرض»: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾⁽²⁾. ولذلك أمرنا الله بالسير في الأرض من أجل اكتشاف عناصره وأسراره: ﴿فَلْيَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾⁽³⁾، فالسير في الأرض أداة أساس ومركزية في تسخير الكون للإنسان، إذ بواسطتها يستطيع الإنسان سبر أغوار الأرض، والكشف عن ثرواته الباطنية؛ لأن الله سبحانه «منح الإنسان القدرات العقلية والمهارات الجسدية التي تمكنه من تحويل

(1) سورة الإسراء، الآية 36.

(2) سورة آل عمران، الآية 190.

(3) سورة العنكبوت، الآية 20.

القوانين الكونية التي يكتشفها إلى تطبيقات وصناعات تُمكن الإنسان من الانتفاع بعناصر الكون ومكوناته لتسيير حياة الإنسان والتمتع بالخبرات الدفينة في هذا الكون وعناصره، ولتذليل العقبات والمصاعب التي تواجهه في حياته»⁽¹⁾، وبها - كذلك - يصل الإنسان إلى عمق الإيمان عبر الوصول إلى تاريخ البشرية وما يُشير إليه من عظة واعتبار. ومن هذا المنطلق، طالبنا القرآن بقراءة تاريخ الأمم والاستفادة من تجاربهم: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ﴾⁽²⁾.

ج. الانتفاع بالنعم وشكر المنعم:

إن أعمال السمع والبصر والفؤاد للنظر في الكون منهج يُوصل الإنسان إلى مستويات رفيعة في تسخير الكون، الأمر الذي يقوده إلى الانتفاع بثمرات هذا التسخير؛ وهذه هي الأداة الثالثة من أدوات التسخير والاستعمار؛ أي تحقيق الغاية الأساس من التسخير والاستعمار المرتبطة بشكر الله تعالى بعد الانتفاع بنعمه. فتسخير الكون للإنسان لا يعني استعماله وإخضاعه لنزعات الإنسان التي كشفت عنها الحضارة المعاصرة، بفعل سيادة المنزع المادي الغربي، فالكون لا يستجيب للإنسان إلا إذا فهم الإنسان كيف يوجّه الكون ويُسخّره؛ انطلاقاً من غاية العبودية⁽³⁾، ومن خلال السير في الأرض وتقليب النظر في الآفاق والأنفس لاستنطاقها بما تُخفي من أسرار متعلّقة بوجودها تُفصح بها عن نفسها ودورها الوظيفي، وعندئذ نحصل على المعرفة لما يجري من حولنا⁽⁴⁾. فالمركزية في هذا الكون المنظور حتى الساعة هي لـ«الأرض»، والمركزية في هذه الأرض هي لـ«الإنسان»، وهذا الإنسان ذو طبيعة خاصّة وذو رسالة خاصّة⁽⁵⁾.

(1) الكيلاني، فلسفة التربية الإسلامية، م.س، ص155.

(2) سورة الروم، الآية 42؛ وانظر: سورة الأنعام، الآية 11.

(3) انظر: سورة البقرة، الآية 163؛ سورة الحج، الآية 63.

(4) إسلامبولي، سامر: الألوهية والحاكمية دراسة علمية من خلال القرآن الكريم، ط1، دمشق، الأوائل، 2000م، ص56.

(5) البوشخي، الشاهد: «القرآن والإنسان»، مجلة حراء، السنة 7، العدد 27، نوفمبر-ديسمبر 2011م، ص7.

خاتمة:

حاولت هذه المقالة البحث عن معالم الإنسية في النصوص القرآنية من أجل الوصول إلى رؤية معرفية لا تُلغي الإنسان والدين؛ بقدر ما تعكس تصوّراً لحقيقة الإنسان ووظيفته في الكون، يحظى فيها الدين بموقعه من أجل توجيه جهد الإنسان وفق مقصود الله تعالى، وهي العلاقة التكاملية التي يُقدّمها الوحي، وتنظيم الإنسان في إطارها، غير أنّ التأويل التاريخي والتفاعلات الناتجة عنه أبعدت الإنسان عن مضامين الرؤية الإسلامية الصحيحة، ليتمّ تعويضها بالدلالات التاريخية. وقد عمل الوحي الإلهي على تصحيح الصورة عبر مراحل وحقب تاريخية، من خلال إرشاد الناس إلى منهج الله تعالى، وجاء القرآن الكريم مصدّقاً ومهيماً على ما قبله من الكتب، ليعالج مشكلة الإنسان والعالم، ويُرَتّب العلاقة من جديد بين الوحي والإنسان والكون وفق رؤية جدلية تكاملية يعهد فيها للإنسان بأمانة الاستخلاف التي خلقه الله تعالى من أجلها.

إنّ الوصول إلى هذه الغاية مدخل معرفي تجاوزي لحضارة الإنسان - الإله التي تشكّلت مع الفكر المادي المعاصر الذي أسّسته التجربة الغربية، بمقوماتها الفلسفية والمادية، والتأصيل التاريخي. ما يفرض على أمة الشهادة والحضور استنطاق القرآن الكريم لتقديم جواب إنساني لمعضلة الحضارة المعاصرة، يفتح للإنسان آفاق الرسالة العالمية.